نجد

سليمان الدخيل

يوليو، 1911

موقع نجد وحدودها

ديارُ نجدٍ واقعةٌ في قلب بلاد العرب أو هي سُرَّتُها. وحدودها هي من الشمال النفودُ الفاصلةُ بلادَ الجوف عن بلاد نجد، وهي النفود بوجه الإطلاق، ومن الجنوب النفودُ المسمّاةُ بالرّبع الخالي، وهي بلاقع أو مفاوز أو فلوات لا تفرق بشيء عن نفود الشمال، ومن الشرق الاحساء والقطيف، ومن الغرب أغلب بلاد الحجاز.

سكّان نجد في الزّمن الخالي وفي الزّمن الحالي

كان أهل نجد في السابق كأغلب سكان بلاد العرب أخلاطًا من أمم شتى، مِن عربٍ وفُرسٍ وأرميين وعبران وآشوريين وكلدان وبابليين، ثمّ امتزجوا امتزاجًا واحدًا مع الزمان حتى أضحوا أمة واحدة، ولما جاء الإسلام زادوا وحدةً، ولما ظهرتْ الوهابيّة بانوا كل البينونة عن سائر سكان الجزيرة حتى أضحوا أمّةً مستقلة بنفسها، ولها أوصافٌ خاصّة بها، كالشّجاعة والبسالة والتديّن المفرط الضارب إلى التعصّب، والإباءة وعدم تحمّل الضيم، وتوقُّد الذكاء وحبِّ التجارة الواقفة على أصول الشرع، إلى غير هذه المناقب الدّالة على النّجديّين من الناس الذين بانوا عن سائر العرب بالمآثر الجليلة التي لا تشاهد إلا في السلف الخالي.

أقسام نجد

تُقَسَّم نجدٌ إلى ثلاث إمارات، ولكل إمارة حاضرةٌ قائمةٌ بنفسها.

الإمارة الأولى: قاعدتها الرِّياض، وهي حاضرةُ إمارةِ الأميرِ الخطيرِ ابن سعود، الذي قام بتجديد مذهب السلف الصالح، وهو المذهب الذي يُعرف الآن بمذهب الوهّابية، أو بالوهّابية من باب

الإطلاق أو من باب الأغلبيّة. وأهلُ نجد كلّهم يلقَّبون بالوهابيّة نسبةً إلى من قام بالدّعوة في بادئ الأمر، وهو الشيخ محمّد بن عبد الوهاب. أما موقع الرياض فمعروف، أيْ في جنوبي نجد.

الإمارة الثانية: إمارة الأمير الجليل ابن الرشيد، وقاعدتها حائل، وهي في شمالي نجد.

الإمارة الثالثة: القصيم (بالصاد لا بالسين كما يكتبها بعض أهل الجرائد)، وهي عبارةٌ عن بلدتين كبيرتين وهما عنيزة، وهي عاصمة إمارة آل سليم، وبريدة، وهي عاصمة إمارة آل مهنا، وما بين هاتين البلدتين مسافة قدرها سِتُّ ساعاتٍ للرّاكب. وكِلتا البلدتين - عنيزة وبريدة - دخلتا في قبضة الأمير عبد العزيز ابن السّعود الموجود الآن.

العلم بوجه الإجمال في هذه الإمارات الثلاث

استناداً على ما تقدم، نقسِّم البحثَ إلى ثلاثة أقسام، نخص كل إمارةٍ بكلام يناسبها مناسبة إجمالية. فنقول: كانت ربوع ديار الرياض - وتلقب حيناً بالعارض - منبعثَ أنوار العلم والعرفان في عهد غضارة إمارة آل سعود. لكن أكثر هذا العلم يدور على علم التوحيد والكلام والأصول والتفسير والفقه واللغة وجميع العلوم الدينية، وقليلٍ من النّحو والصرف وسائر علوم الآلة. فلما أخَذَتْ دولتُهم بالزّوال تقلّصَتْ ظِلالُ العلوم عنها أيضاً رويداً رويداً، وتشتَّتَ العلماءُ على أوجه شتّى، فمنهم بالموتِ وآخرون بالمهاجَرة إلى بلادٍ أخرى يرتزقون فيها، لأن عيشتهم في السابق كانت متوقفةً على ما يُجريه الأميرُ ابن السّعود من الرواتب الدارّة من بيت المال، وهذا يمتلئ مما كان يُجمع على ما جاء به الشرعُ الشريفُ من النّظام والأصول المثبتة في الإسلام. أما اليوم فلم يبقَ مِن تلك العلوم شيء في الرياض، وانتقل أغلبه إلى بلاد القصيم وحائل السالِفَتَي الذِّكر. ولا يوجد من يتعاطى العلوم فيها إلا أناسٌ قلائل، ووجودُهم كعدَمِهم، وهم الذين يُقال إنّهم خبطوا في الديانة خبطَ عشواء، وأظهروا التّعصب الديني الأعمى، وأشاعوا عنه وعن أصحابه أموراً لا تُوافق مذهبَ السَّلف، وهي وإن كان أغلبها ملفّقًا إلا أنّ لها بعض الحقيقة، فجسمها خصومهم وحسادهم على تلك البقاع وعلى عزتهم فيها وانتصارهم على مناوئيهم، إلى أن آل تقلّص ظلّ دولة آل سعود، ففرحوا بذلك فرحاً

لا يوصف. وما زالت الحالة في تأخّر وتقهقر حتى اضطر أكثر أهل تلك البلاد إلى المهاجَرة للاسترزاق، فظعنوا عنها مُكرَهين، ولكن هجرتهم لم تبعد لأنهم لم يتجاوزوا الأحساء والزّبير والبصرة، أما أكثرهم فتراهم في البحرين وعُمَان وسائر تلك الأصقاع، وكلها لا تخرج عن بلاد العرب. والذين هاجروا لم يكتسبوا بهجرتهم علومًا تقدِّمُهم إلا النَّزرَ القليلَ مما يوافق مَشربَهم وتغرُّبهم، أيْ معرفةُ أعداء الدول وقُواها وبعض ممالكها ومستعمراتها، وسياسة بعضها لبلاد نجد. والخلاصة أنهم يتأثرون كل ما له تعلّقٌ ببلادهم. والبعض منهم - وهم أفرادٌ قليلون - وصلُوا إلى الهند، كمدينة لكنو وحيدر آباد وأمرتسر وغيرها، ودرسوا بعض علوم الدين، وشدوا شيئاً من الفلسفة وعلوم العمران والاجتماع، لكن علوم هؤلاء الأفراد لم تؤثر في قومهم التأثير المطلوب لـمّا رجعوا إليهم قافلين بها. ولذا لا تراهم حَظِيِّين في عيون وطنيّيهم.

أما إمارةُ ابن السّعود الآن وحاشيتها - وإن شئت فقل أمّا مقدمو إمارة ابن السعود - فإنهم على كفاية من العلم اللازم لإدارة شؤونهم حسب سعتها وما تطلبُه منهم مكانتُهم، بل يوجد بينهم أفراد لا يُستغنى عنهم لحلّ الأمور المعضلة أو المشكلة، وأكثرهم ممن تربوا في المدن. وفي هذا العهد - أي منذ إعلان الدستور العثماني - انتبهوا انتباهاً عظيماً، وهم في شوق لاعِج إلى الاطلاع على حقائق الأمور والانضمام إلى الحكومة العثمانية. ولكن يا للأسف، إنّ الحكومة لم تشرح صدرهم إلى اليوم، ولا تراسلُهم بل ولا تَنظُرُهُم، لا، بل لـمّا طلبَ ابنُ السّعود من ناظر الداخلية طلعتْ بك - حسبما بلغني - لِيبعث إلى المجلس من قِبَلِه مبعوثين؛ ردَّه قائلاً: نفعل ذلك في الانتخاب الجديد. ولما كانت بيني وبين الأمير ابن السّعود قَرابةٌ مَثُلْتُ بين يديه بعدما قضيتُ سنين في الهند، وشرحتُ له أحوال الدّستور في الأمم الراقية، فانشرحَ له صَدرُه، وأفادَني بأنّه يكون أوّل مؤيِّد له، وأعظم مساعد للحكومة العثمانية فيما تريده. وألححتُ عليه بأن يوفد إلى الحكومة العثمانية مبعوثين من قِبَلِه، ففعل وطلبَ ذلك لكنه رُدَّ كما تقدَّم القول.

هذا وأهلُ هذه الإمارة يطالِعون بلاعِج الهوى الجرائدَ والمجلات، وتأتيهم من كل حدب وصوب، ويطلبون الكتب ولا سيّما الحديثة الوضع ليقتنوها ويطالعوها، ويقبلون عليها إقبال الجياع على القِصَاع، غير أنّ الاضطرابات التي تحدُث بين القبائل غالباً لأدنى سبب - وسُنّةُ الأعراب منذ القديم

سنّةُ الغزو والهجوم - لا تدعُهم يتفرَّغون لها كل التّفرغ، ويستفيدون منه الفائدة المطلوبة. ومع هذا فأنا أرى أنه لا تمضي سنواتٌ إلا ويَصِلُون إلى درجة حسنة من العلوم والآداب بمنّهِ تعالى وكَرَمِه.

حائل :

وأما العلوم والآداب في حائل - ويقال لهذه الإمارة أيضاً الجبل، وجبل شمّر، وهو جبل طيّءٍ في السابق - فهي على غير ما رأيته في الإمارة الأولى. ومما يجب أن تعلمه قبل الإيغال في البحث أن هذه البلاد قد وصلت إلى درجةٍ تُذكَرُ في العلوم والمعارف منذ سابق العهد، وإمارتها لشمّر منذ أن وجدوا إلى يومنا هذا. وقد استولى عليها آل سعود حين قويت شوكتهم وعظمت صولَتُهُم، وما كادت شمسُهم تميل إلى الغروب إلا وعادت تلك الديار إلى أهلها الأقدمين. وكان أوَّل أهلها ورؤسائهم آل علي، ثم انتقلتْ إلى طلال، فبندر فمحمد الرشيد فعبد العزيز، ثم إلى ابنه متعب، ثم إلى خال متعب سلطان، ثم إلى سعود أخ سلطان، ثم إلى سعود بن عبد العزيز أخي متعب. ولهؤلاء في ذلك قصّةٌ تاريخيةٌ عجيبةٌ طويلةٌ لا يَسَع المقام ذِكرها.

ولما دالتْ إمارةُ آل سعود وافقَ آخرُها نموّ إمارة محمد الرشيد، فانتقلت أكثر الكتب إلى حائل. وأنتَ تعلم أنْ لا صناعة ولا تجارة لأهل حائل إلا الغزو لا غير، ومع ذلك فتراهم قد سبقوا غيرهم في العلوم العصريّة، وذلك لاختلاف كبرائهم إلى الأستانة ومصر والحجاز أيام السلطان عبد الحميد المخلوع، فأصبح البعضُ منهم يَعرِف اللسانَ التّركي والفارسي، وتَرى في بلادهم اليومَ الكُتبَ العربيّة القديمة النادرة الثمينة التي لا تَرى لها وجودًا في سائر البلاد العربية، وأغلبها غير مطبوع، وتُؤنِسُ جماعةً منهم تُطالِع الصّحف السيّارة والمجلات الموقوتة. وأهلُ هذه الديار أنورُ من غيرهم من تلك الأقطار في العلوم العصرية، وأوسع اطلاعًا في الأمور السياسية، ولهم ميلٌ شديدٌ إلى الحكومة العثمانية، وهذا الميل أظهَرُ فيهم ممن سواهم، لكن الحكومة لا تزال في ريبٍ من أمر العرب والإحجام عنهم، وعلى ما أرى أنها تودّ أنْ تكون في غِنىً عن نصرتهم، ولعلها تخاف مِن أنهم إذا تمدّنوا قلبوا لها ظهر المجنّ، وعادوا إلى مجدهم السابق، وهذا كله من التخيّلات السياسية، ومن الأوهام التي لم تدر في خلد العرب.

ولما أتيتُ بغدادَ ورأيتُ الحالةَ الحاضرةَ أبديتُ ما أوجَبَتْه عليَّ الوطنيةُ العثمانيةُ والعربيةُ للطرفين بجامعة الدِّين، وشرحتُ ذلك بعدّة مقالاتٍ بسطتها في جريدتِي الرياض، وبيّنتُ ما يَجِب من الفوائد الجمّة إذا انضموا إلى أبناء آل عثمان وصاروا يداً واحدة على الأعداء. ولقد أثر كلامي هذا على أبناء وطني تأثيراً عظيماً حسناً ذا نتيجةٍ تُذكَر، لكن ذهب كله أدراجَ الرِّياح لما رأوا أن الدولةَ العثمانية لا تعيرهم أذنًا صاغية ولا أحلاماً واعية. فلعل الزمان يُحسِن النيات في أبناء عثمان، فيجني هؤلاء في بضع سنين ما لم يجنوه بحذرهم مدّة سنوات متطاولة. هذا فضلاً عما شرحتُ للحكومة ما يجب أن تتخذه من الاحتياطات اللازمة لمنع الأسلحة من دخولها العرب، وذكرتُ لها الوسائط الحسنى للبلوغ إلى تمدّنٍ صادق، وأرسلتُه إلى أحد مبعوثي العراق، وبعد أن قُرئ في المجلس حُوِّل إلى النّظّارة، ولا أدري بعد هذا ما جرى به، ولعله ضاع أو احترق مع جملة الأوراق التي ذهبت في إحدى حرائق الأستانة في هذه الأيام الأخيرة.

أما ميلُهم إلى العلوم الأدبية كالشِّعر والنّحو وعلوم الآلة والسياسة والاجتماع فممّا تظهرُ منافِعُه عن قريبٍ إذا ما تحسَّنتْ الأحوالُ وتوفّرت وسائطُ النقل والانتقال، بعد أمَدٍ غيرِ بعيد بمنه تعالى وكرمه.

القصيم:

البحث في علوم وآداب أهالي القصيم يتناول البلدتين المذكورتين اللّتين تتقوّمُ منهما، فأهلُ هذه البلاد ليسوا كأهل الدّيار الأخرى، فلقد دخلوا بتجارتهم البلادَ الكثيرةَ من الأصقاعِ المتمدِّنة، كالهند ومصر والشام ولندن ومدنِ أميركة، وتجِدُ بعضَهم قد توطَّنوا تلك الرُّبوع، كما احتلّوا بلادَ العِراق كبيرَها وصغيرَها. ولقد تقدّموا في التجارة أحسنَ من غيرهم بكثير، وكذلك قُلْ في العلوم على مختلف أنواعها وتشعُّبِ أفنانها كلّ ذلك في البلاد المختلفة المذكورة كما في ديار قُطرِهم الواسع، فإنك لا تسير إلى بلدٍ إلا وتجد فيه منهم نفرًا يتعاطى الأمورَ التجاريّة غيرَ غافلٍ عن العلوم المعروفة في تلك البلدة مَقامَهُ. ولهذا إذا تيَسّر لكَ فدخلتَ بلادهم ترى فيهم هذا يكلِّمُك بالتركيّة، وذاك يطارحُكَ الكلامَ بالفارسيّة، وتسمعُ واحداً يذاكِرُكَ بالهنديّة، ويُقبِل إليك آخر يفاتِحُكَ بالإيطالية، ويقترب منك صديقٌ محِبٌّ يخاطِبُكَ بالفرنسوية، إلى غير هذه اللغات من أوردية وتامولية وإنكليزية.

أما التاريخ فهم يعتنون به أشدَّ الاعتناء، وكذلك يزاولون علومَ الاجتماعِ والسياسةِ مزاولةً تَفُوقُ معالجةَ سِواهُم لها، وهنا نختصر القول بإضافة إلى ما تقدّم ذِكرُه عن الإمارتين الأوليين بخصوص العلوم والمعارف أنّه لا يوجد في تلك الربوع مدارسُ أو مكاتبُ على ما نشاهِدُهُ في البلاد الأخرى المتمدِّنَة من ابتدائية ورُشديّة وكلّيةٍ وجامعة.

أمّا مدارِسُهُم فهي مدارسُ خاصّةٌ بهم تَشمَلُ جميعَ المَطالب، وتَجْمَع في رَدْهَاتِها كُلَّ طالب على السَّواء، فالتِّلمِيذُ يأخُذ أيَّ كتابٍ كان أو أي كتابٍ أرادَ قراءتَه ثُمّ يَحضر المدرسةَ ويقرأه على المعلِّم الموجود فيها بدون أن يَنتَظِم في سِلْك حلقةٍ تتلقّى العِلم معًا مِن الأستاذ في وقتٍ محدود، كما هو الأمر الجاري في المكاتب العصرية المنتظمة.

وبيوتُ أكثرهم ليست إلا مدارِس ونوادي عِلم، إذ ترى فيهم من ينضمُّ إلى رفيقٍ ثانٍ له، أو إلى ثالثٍ أو أكثرَ حسبما يتّفقون عليه، فيجتمعون في بيتِ واحدٍ منهم، أو أنّهم يجتمعون في كل يوم في بيت غير البيت الأول، بل في بيت الرفيق على التوالي، فيتدارسون في الكتب التي وقعت بأيديهم، وهكذا يفعلون حتى النهاية، على ما كان جاريًا في سالفِ الزَّمن في أنديتهم ومجالسهم ومجتمعاتهم.